**المحاضرة الرابعة: الانسجام وبنية النص**

سبقت الإشارة إلى أن سبب تغير المنحى البحثي في اللسانيات من الجملة إلى النص هو عدم كفاية الجملة في الأداء البشري للغة من ناحية المعنى، أي أن المعنى التواصلي التداولي يحدث –وفقط-من خلال بنية النصوص، وهذا ما يجعل القضية اللسانية قضية دلالية بالأساس، حيث لا يحدث التواصل إلا إذا حدث الانسجام بين الشكل والدلالة.

يرى فان دايك أن انسجام النص لا يمكن حسابه بالوسائل اللغويـة وحدها، بل هو «خاصّية (سيمانطيقيـة) للخطاب، قائمـــــــة على تأويل كل جملة مفردة متعلقـــــــة بتأويل جملة أخرى[[1]](#endnote-1)) «)

ومن رأيه أن العلاقات بين الجمل والقضايا يمكن أن توجد من دون أن يُعبر عنها، وهو السبب الذي من أجله كان كل تركيب نظري للنص ضروريـا لبيان كيف يمكن أن تؤوَّل أنواع النصوص على وجه الانسجام، حتى ولو ظلت معظم القضايا التي بها في حاجة إلى إثبات انسجامها ([[2]](#endnote-2)).

  ويرى براون ويول أَن وحدة النص لا تتحقق فقط بوجود الأدوات النحويـة الرابطة للنص، بل تتحقق بوجود الرابط المعنوي الضمني، إذ من السهل أن نجد نصوصا نفهمها بكل تلقائيـة على أنها متماسكة، لا يظهر فيها إلا القليل من الأدوات الظاهرة المعبرة عن علاقات التماسك. فإن القارئ لهذه النصوص يفترض بكل تلقائية أَن توالي الجمل هنا يؤلف نصا، وإن القارئ سيفهم الجملة الثانية في ضوء الجملة الأولى. فهو سيتلمس وجود علاقات معنوية قائمة بين الجمل ([[3]](#endnote-3)) .

 ونلاحظ مثل هذا الفهم أيضا عند هاينه من وفهيفجر؛ إذ يريان أَن وحدة النص «لم تعد تقاس فقط من خلال الظواهر السطحية، بل يبحث عنها في أبنية القاعدة الدلالية، ممّا يتم شرحه بناء على النماذج الأساسية الدلالية؛ مسائل المركبات المعقدة، تناسق النصّ، وأيضا –مع استثناءات-استقلالية النصوص «.

  ومن بين التعريفات التي وضعت لهذا المفهوم، تعريف سوفنسكي الذي يصف الانسجام بالقول: «يقضى للجمل بأنّها منسجمة إذا اتصلت بعض المعلومات فيها ببعض، في إطار نصّي أو موقف اتصالي، اتصالا لا يشعر معه المستمعون أو القراء بثغرات أو انقطاعات في المعلومات» ([[4]](#endnote-4)) وبحسب هذا التعريف لا يمكن للجمل أن تكون منسجمة، ومن ثم يمكن لنا أن نسميها نصا، حتى يتصل ما فيها من معلومات بعضها ببعض، ليتسّنى للمتلقي بعد ذلك فهم فحوى النص، لكي يتحقق الغرض التواصلي من النص. وهذ اما أكده (ليفاندوفسكي) بقوله: «ليس الانسجام محض خاصّية من خواص النص ولكنه أيضا حصيلة اعتبارات معرفية (بنائية عند المستمعين أو القراء، الانسجام حصيلة تفعيل دلالي … ينهض على ترابط معنوي بين التصورات والمعارف، من حيث هي مركب من المفاهيم وما بينها من علاقات، على معنى أَنها شبكة دلالية مختزنة، لا يتناولها النص غالبا على مستوى الشكل، فالمستمع أو القارئ هو الذي يصمم (الانسجام) الضروري أو ينشئه» ([[5]](#endnote-5)).

  ينشأ عن التدرج نحو الانسجام في النص، فيما ما تعبر عنه الجمل ومتواليات الجمل من قضايا، ما يسمى ببنى النص الصغرى. أما البنى الدلاليـة الأشمل، التي لا تشخص مباشرة من طريق العلاقات بين قضايا مفردة، بل تشخص في حدود ما نجريه على تلك المجموعات والمتواليات من إجراءات، فهي البنى التي تنتج هذا النوع من القضايا والمتواليات الكلية، التي تؤلف ما يسمى ببنى النصّ الكبرى.

ويرى فان دايك أَن القضايا التي نسلم بها على أنها تنشئ الانسجام النظري للنص، والتي لا يعبر عنها في النص تعد حلقات مفقودة في سلسلة المعنى، ويمكن أَن يعاد تركيب هذه الحلقات المفقودة بوساطة ما يسمى بقوانين الاستدلال، أو القوانين والإجراءات التداوليـة، والنظرية المعرفيـة([[6]](#endnote-6))كما يتدعم الترابط المفهومي للنص، بوسائل الانسجام كالعناصر المنطقية كالسببية والعموم والخصوص، والمناسبة والتخطيط ومعلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمؤلف، و يتدعم كذلك بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم ([[7]](#endnote-7)).

وإذا كانت علاقات التماسك اختصت بتفكيك النص، والبحث عن العناصر اللفظية التي تمنحه صفة التماسك، فإنه في هذا المستوى سيختص بإعادة بناء النص، وبالربط العلائقي بين جميع وحداته وعناصره. فالمستوى الدلالي لبنية النص، لا يتحدد إلا من طريق الربط والتحول؛ ربط الوحدات المفصلية مع بعضها، ومع بقية العناصر في بنية النص، والتحول من قضية إلى أخرى، وكذلك من التفكيك إلى الفهم والتأويل، «فالبنية -إذن-نسيج متماسك لوحدات متعالقة، والوحدات تشع دلالاتها من خلال تعالق السطح والعمق والدلالات تشي برؤية العالم ([[8]](#endnote-8) ) «.

ويفيد الانسجام في توضيح طبيعة النص بصفته نشاطا بشريا، أن النص لا يفيد معنى بذاته، بل يتم ذلك بالتفاعل بين المعرفة التي يقدمها النص وما لدى المتلقي من معرفة مختزنة عن العالم، وينتج عن هذا قيام تعاون بين اللسانيين النصيين والباحثين في علم النفس المعرفي، من أجل استكشاف بعض الأمور الأساسية التي تفيد في تفسير النص. كما أنه بوسع المستعملين المختلفين للنص، تأليف معان مختلفة بعض الشيء عن معنى النص؛ إلا أن لأغلبهم، على الرغم من ذلك، نواة مشتركة متسعة للمحتوى والعمليات المحتملة، تحد من تصبح فكرة معنى النص، فكرة مفرطة في عدم الاستقرار ([[9]](#endnote-9)).

إذن نفيد مما تقدّم أن مفهوم الانسجام Coherence قدّم ليس ليكون مفهوما موازيا ومكمّلا لمفهوم التماسك، إذ لا تقتصر وحدة النص، والخاصية النصية فيه على العلاقات التركيبية، بل يشمل العلاقات المعنوية التي لا تظهر في البنية السطحية للنص، والتي يستدل عليها من خلال الموقف والاتصال، ومن خلال ما يتصل بالتجربة الإنسانيـة، وتفاعل المعلومات النصية مع المعرفة السابقة بالعالم للمتلقي، بل ليجعل النص أكثر احكاما وتنظيما وتداولية.

إذا كان هذا التوصيف متعلقا بدراسة لغة البشر، على ما يعتورها من نقص وتنظيم، وقصور في الاستراتيجيات والأهداف لدى المرسل والمرسل إليه، فإن الأمر سيكون محاطا بالحيطة والحذر في دراسة النص القرآني لما له من خصوصية اللغة، وخصوصية الدلالة والبناء.

**هوامش وإحالات**

1. - النصّ والسياق، ص: 137. [↑](#endnote-ref-1)
2. - نفسه ، ص: 139. [↑](#endnote-ref-2)
3. - ينظر، تحليل الخطاب، ص: 234 -236. [↑](#endnote-ref-3)
4. - حبك النص، محمد العبد، منظورات من التراث العربي، مجلة فصول العدد/59، ربيع 2002، ص: 55. [↑](#endnote-ref-4)
5. - نفسه، ص: 56. [↑](#endnote-ref-5)
6. - ينظر، حبك النص، ص: 56. [↑](#endnote-ref-6)
7. - ينظر، النص والخطاب والإجراء، ص: 103. [↑](#endnote-ref-7)
8. - بنية النص الكبرى،صبحي الطعان،عالم الفكر، الكويت، 1992 ص: 451. [↑](#endnote-ref-8)
9. - ينظر، أساسيات علم لغة النص مدخل إلى فروضه ونماذجه وعلاقاته وطرائقه ومباحثه، كالماير وآخرين، ترجمة سعيد حسن بحيري، زهراء الشرق، القاهرة ط1، 2009، ص: 147. [↑](#endnote-ref-9)